«الدولة» في الخطاب السياسي الفلسطيني

عبد الاله بلقزيز

في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨، أعلن المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته التاسعة عشرة، في الجزائر، قيام دولة فلسطين، ولم يكن قد اكتمل عام على اندلاع الانتفاضة الشعبية في الارض المحتلة. ولا يحتاج المرء الى كبير عناء للاستنتاج ان الاعلان ذاك انما كان، في جوهره، استجابة واعية، ومدروسة، لمطلب حق تقرير المصير الوطني الذي طرحته الانتفاضة بحدة، وأصبح شعاراً واقعياً مفتوحاً على امكانية التحقق. فلولاها (نعني الانتفاضة) لكان من الصعب، خصوصاً في مناخ التردي العام الذي ساد في الجبهة العربية لاكثر من عقد من الزمن، التحدث عن، بل تصوّر، امكانية تحول هذا الشعار الى مطلب وطني للتحقيق الفوري.

بالقدر عينه، لا يحتاج المرء الى كبير عناء للاستنتاج ان ذاك الاعلان انما أتى ليتوّج تاريخاً كاملاً من المطالبة باقامة الكيان الوطني الفلسطيني، يمتد جذوراً الى ما قبل نشوء الواقعة الكيانية الصهيونية على أرض فلسطين، ممّا يعني ان الاعلان ذاك يرتكز على تراث نظري سياسي سابق لقيام الانتفاضة، ويستمدّ منه عناصر وجوده. وهكذا، فاذا كانت الانتفاضة قد مثّلت العامل الدافع الى ذلك الاعلان، فان التراث الفكري السياسي الفلسطيني، الخاص بمسألة الدولة والكيان، مثّل العامل المؤسس لذلك الاعلان، والمفسّر له كاختيار في السياسة الفلسطينية.

كيف تبلورت، وتطورت، فكرة الدولة في الفكر السياسي الفلسطيني المعاصر؟ وما هي التعديلات التي شهدتها، والاسباب التي كانت وراءها؟ ما هي رهانات، وخيارات، تحقيق الدولة في مسيرة العمل الوطني الفلسطيني؟ كيف أصبحت الحاجة ضاغطة، وراهنة، الى اخراج فكرتها الى الصعيد السياسي البرنامجي؟ ولماذا يبدو مطلب الدولة أقل تواضعاً من ذي قبل، جغرافياً وسياسياً؟

تلك هي الاسئلة التي نودّ اثارتها في هذا النص، على سبيل الربط بين الظرفية الجارية وما تحمله من متغيّرات، والفترات التاريخية السابقة وما تنطوي عليه من ثوابت، لتعيين الكيفية التي تأسست بها فكرة الدولة في الخطاب السياسي الفلسطيني المعاصر.

١ ـ جذور فكرة الدولة؛ القومي والوطني

القارىء في نصوص الفكر السياسي الفلسطيني الحديث، والمعاصر، يواجه حشداً عظيماً من القرائن الدالّة على الاهتمام الذي حظيت به مسألة الدولة في التجربة السياسية للحركة الوطنية الفلسطينية، سواء في استقلالها بنفسها كحركة وطنية، أو في انتظامها في الاطارين، السوري والقومي العربي. ان تاريخ الاهتمام بهذه المسألة يربو على السبعين عاماً. وهو تاريخ كان كافياً كي تستقر فيه فكرة الدولة على صيغة معيّنة، بعد طول مراوحة وانتقال، عاشتها بين «الخيارين»، القومي